

مطالعات في التصوف

عوارف المعارف . معرفة النفس

— ٤ —

ليس الباب السادس والخمسون من كتاب عوارف المعارف الذي أريد أن أحدثك عنه في هذا الفصل باباً من أبواب التصوف فحسب. وإنما هو قد جمع إلى المكاشفات الصوفية مذاهب فلسفية ونظريات سيكولوجية لها قيمتها من حيث إظهارنا على معرفة ماهية النفس والروح والقلب والعقل من ناحية . وفي الأمانة عن علاقة هذه الأشياء بعضها ببعض وإعتماد بعضها على بعض وتأثير بعضها في بعض من ناحية أخرى .

ويرى مؤلف عوارف المعارف بادية ذي بدء أن الكلام في الروح صعب المنال . وأن الإمساك عنه خير من التعرض له والاشارة إليه . فقد قال تعالى في كتابه العزيز : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » وهذه الآية الكريمة هي التي هبط بها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله اليهود أن يخبرهم عن الروح وعن كيفية تعذيب الروح التي في الجسد . ولم يكن قد نزل على النبي حتى ذلك الحين شيء في الروح فنزلت هذه الآية . وهي تدل على دلالة واضحة لا لبس فيها ولا غموض على أن معرفة ماهية الروح أمر مقصور على الله وحده . وإذن فكيف يتسنى لمخلوق أن يخوض في هذا الموضوع أو يشير إليه وقد أمسك النبي عنه ؟ أليس الأجدر بالإنسان أن يتركه جانباً تشبهاً برسول الله واستمسكاً بتأديبه ؟ على أن الفلاسفة والعلماء لم يقفوا عند هذا الحد وإنما عرضوا للروح فتناولوها بالبحث والتحليل وحاولوا محاولات شتى، أرادوا أن يكشفوا بها عن ماهية الروح وكنهها ومصيرها بعد الموت. وهم في محاولاتهم هذه اختلفوا فيما بينهم اختلافاً قوياً فلم يأتوا على اتفاق في كتابهم التي أودعوها آراءهم ومذاهبهم . ومن هنا ترى مؤلفنا يقول أنه لم يوجد اختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح . وأنتك إن شاء الله يقول أيضاً إن من بين الذين تناولوا هذا الموضوع قوماً ركبوا متن الشطط فخرجوا على الشريعة وخالفوا أصول الدين . على حين أن من بين الذين استمسكوا بالشريعة وتكلموا في ماهية الروح قوماً اعتمدوا في تحليلهم للروح على الاستدلال والنظر . وقوماً آخرين كانت طريقهم طريق الذوق والوجد . ومن هنا خاض علماء الصوفية في موضوع الروح وأرادوا تعرف ماهيتها، وكان الأولى بهم والأجدر أن يمسكوا عن ذلك تأديباً بأدب النبي

وبعد أن أظهرنا مؤلفنا على ما لمسألة الروح من خطر عظيم ودقة فائقة تعلو على إدراك الإنسان نراه يعتمد على تدعيم رأيه بذكر طائفة من أقوال المتصوفة رأوا رأيه وذهبوا مذهبه في أن الروح أمر يتعذر إدراكه ويدق فهمه . ومن بين الأقوال التي ذكر قول الجنيد الذي جاء فيه : « الروح شيء أستأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود . » وقول أبي عبد الله النابجى الذي يظهر نافية على أن الروح جسم يلطف عن الحس . ويكبر عن اللمس . ولا يعبر عنه بأكثر من موجود . »

وقد اختلف الناس في الروح هل هو قديم أم محدث . واختلفوا أيضاً في أمر الروح الذي سئل عنه رسول الله . فذهبوا في ذلك مذاهب شتى وأدلوا بآراء تختلف فيما بينها اختلافاً ظاهراً قوياً . ولعل أهم ما يلاحظ على هذه الآراء أنها تدور جميعاً حول الروح الذي لبس في الجسد . فانت ترى مثلاً أن فريقاً قد ذهب إلى أن الروح الذي سئل عنه النبي إنما هو جبريل . وأن فريقاً آخر قد انتهى إلى أنه ملك . ومهما يكن من شيء فقد اتفقت هذه الآراء على أن الروح الذي هو من أمر الله شيء آخر غير الروح الذي في الجسد والذي يرى مؤلف عوارف المعارف أن الكلام فيه مباح غير محظور .

والروح التي في البدن هي قوامه ودعامته استحق بها اسم الحياة . بها ثبت العقل وقامت الحجة . ولولاها لتعطل العقل ولما كانت له أو عليه حجة . هي جوهر مخلوق ولكنها الطف المخلوقات وأصفي الجواهر . بها تترأى المغيبات ويكون الكشف لأهل الحقائق . وتنقسم الأرواح إلى أقسام : -

(١) أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة . وتسمع ما تحدث به عن أحوال الآدميين .

(٢) أرواح تحت العرش

(٣) أرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت من السعي إلى الله أيام الحياة .

وإذا كانت الروح مخلوقة فقد قال بعضهم . أنها خلقت من نور العزة وأن إبليس خلق من نارها . وقال بعضهم : - قرن الله العلم بالروح فهمي للطاقتها تنمو به كما ينمو الجسم بالغذاء »

ويتناول مؤلفنا بعدما قدمت لك بسط آراء المتكلمين في الروح ، وهو يلاحظ أن أكثر متكلمي الاسلام يميل إلى أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقاً في الإنسان يذهبهما الموت . وأن الروح هي الحياة بعينها بها صار البدن حياً . فإذا انفصلت عنه أصبح ميتاً ،

قص الشعر في الادب العربي

نشرت الأهرام كلمة تحت عنوان « مبتكر مودة قص الشعر » ذكر الكاتب فيها نقلاً عن إحدى المجلات الانجليزية أن مبتكر هذه الطريقة هو المسيو سير بليغوسكي البولندي المعروف وهو يقيم الآن بلندن ، والذي أعرفه أن هذا النوع نشأ من عصر بعيد . فقد يجد الباحث في الأدب العربي كثيراً من الصور الشعرية يعرف منها كيف نشأت هذه الطريقة في العصور العربية الزاهية أيام سلطان العباسيين بالمشرق وبني أمية بالأندلس ، ذلك العهد الذي مال فيه العرب الى كثير من ألوان الترف واطمأنوا فيه الى الدعة وخفض العيش . ولقد كان من آثار هذا الاغراق في النعيم والافتنان في أساليبه أن كانوا يعشون بشكل الفتاة الطبيعي فيقصون شعرها ابتغاء منظر طريف يمتعون به عيونهم في مجالس الشراب ، كما كان يجد الشعراء في ذلك لذة فنية تعينهم على اتساع مدى خيالهم الشعري ، ويطلقون على هذه الفتاة الصغيرة (جارية غلامية) ولم يك هذا النوع من العبث بالشكل الطبيعي مقصوراً على الفتيات ، فقد كانوا يضعون الاقراط في آذان سقاتهم من الغلمان ويطلقون على كل منهم (غلام مقرط) وسيجد القارئ في هذه الصورة تأييداً لما ذكرت قال عامر بن شهيد أحد شعراء الأندلس يمدح أميراً ينتسب الى الاسرة العامرية ، وقد استهل قصيدته بوصف الخمر وأدواتها والجارية التي قامت على الشراب :

أذن الديك فتب أو ثوب وانضح القلب بماء العنب
وتأمل آية معجزة ماقرأنا مثلها في الكتب
ركع الابريق من طاعته وبكى فابتل ثوب الاكثوب
ولول المزهري ينفي طربي وتطربت فأعيا طربي
وريب قام فينا ساقياً كالرشا أرضع بين الربرب
ظبية دون الظباء قصصت فأتت غيداء في شكل صبي
فتح الورد على وجنتها وحماه صدغها بالعقرب

والذي ينظر الى البيت السادس يعرف جيداً كيف كانت (مودة قص الشعر) معروفة بين الأندلسيين ، ولعل أول من نقلها إليهم زرياب (المغني المعروف) فقد وفد من المشرق في عهد الرشيد بعد أن حقق عليه استاذة اسحاق الموصلي فأقام كثيراً من عادات البغداديين في ربوع قرطبة وماجاورها وأحدث وتراً خامساً للعود . فمن المؤكد إذن أن هذه الطريقة نشأت في الدولة العربية ويرجح انتقالها من بغداد الى قرطبة لسبق الأولى في الحضارة نتيجة اختلاط العرب بالفرس واليونان ولا سيما بعد الفتح العربي ؟ على شرف الدين

دبلوم دار العلوم

ولكنها اذا عادت اليه يوم القيامة عادت اليه الحياة
وذهب بعض المتكلمين الى أن الروح جسم لطيف مشتبه

بالاجسام الكشيفة، وهذا رأى أبى المعالى الجويني .
على أن السواد الأعظم من المتكلمين قد انتهى الى أنها عرض،
ولكن هذا المذهب مردود عليه بالأخبار التي دلت على أن الروح
جسم لما فيها من العروج والهبوط والتردد في البرزخ . ومن ثم
لا يمكن أن تكون الروح عرضاً مادامت قد وصفت بأنها جسم .
فليس الوصف الا معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى

وأما مصير الروح بعد خروجها من الجسد فقد حدثنا عنه
مؤلفنا فيما أورد من كلام ابن عباس . سئل ابن عباس : أين تذهب
الارواح عند مفارقة الابدان ؟ فقال : أين يذهب ضوء المصباح عند
فناء الادهان ؟ قيل له : — وأين تذهب الجسوم اذا بليت ؟
قال : فإين يذهب لحمها اذا مرضت ؟

وأكبر الظن أن آراء المتكلمين في الروح ومذاهبهم التي
أوجزها لنا مؤلف عوارف المعارف تكفي لاعطائنا صورة
لابأس بها لهذا الخلاف الضعيف الذي كان بينهم حول مسألة هي
من ادق المسائل واعوصها ان لم تكن ادق المسائل واعوصها
جميعاً . ولعل دقة المسألة وخطورتها آتيتان من حيث ان باحثها
مضطر بحكم بحثه الى أن يعرض لما جاء به الكتاب والسنة . ثم
هو مضطر فوق هذا الى ان يلائم بين رأيه وبين مادعا اليه
الكتاب والسنة . ومهما يكن من شيء فقد رأى المتكلمون
أنفسهم امام ما يقال لهم من ان الموجودات محصورة .
فكل موجود إما أن يكون قديماً اوجسماً اوجوهرًا أو عرضاً .
ومن هنا كان لابد لهم من أن يتعرفوا ماهية الروح ويطبّقوا عليها
هذا الذي قيل لهم عن حصر الموجودات . فهل الروح قديمة ؟ هل
هي جسم ؟ هل هي جوهر ؟ هل هي عرض ؟ تلك اسئلة رأوا أنفسهم
مضطرين الى الاجابة عنها . وقد أجابوا عنها بالفعل . فرأى فريق
منهم ان الروح قديمة لانها امر والامر كلام والكلام قديم .
ورأى فريق آخر انها جسم . وذهبت طائفة الى انها جوهر ،
وطائفة اخرى الى انها عرض كما اشرت الى ذلك آنفاً . ويرى
أبو طالب المكي أن الارواح اعيان في الجسد كما يرى ان النفوس
كذلك . فهو يقول ان الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر
نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عندئذ . وإن الروح تتحرك
للشر فتظهر في القلب ظلمة يراها الشيطان فيقبل حينذاك بالاغواء

محمد مصطفى حلمي

يتبع

ماجستير في الآداب